تحقيق القول

في شرط (إذا) و(إن)

الدكتور

بهاء الدين عبد الرحمن

الألوكة

www.alukah.net

تحقيق القول في شرط (إذا) و(إن)

بهاءالدين عبدالرحمن

اشتهر بين أهل النحو والبلاغة أن شرط (إن) محتمل الوقوع أو نادر الوقوع أو مستحيل الوقوع، وأن شرط (إذا) واجب الوقوع أو محتم الوقوع، هكذا بإطلاق، وليس الأمر كذلك، وفيما يأتي تحقيق لهذه المسألة.

الفرق بين (إذا) و(إن) الشرطيتين أن (إذا) في الأصل ظرف زمان كما في مثال سيبويه المشهور الذي صار عَلَما لشرط (إذ): آتيك إذا احمرّ البسر، وذلك عندما قال: «وسألته عن (إذا)، ما منعهم أن يجازوا بها؟ فقال: الفعل في (إذا) بمنزلته في (إذ)، إذا قلت: أتذكر إذ تقول، فـ(إذا) فيما تستقبل بمنزلة (إذ) فيما مضى. ويبيّن هذا أنّ (إذا) تجيء وقتاً معلوماً؛ ألا ترى أنك لو قلت: أتيك إذا احمر البسر كان حسناً، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر، كان قبيحاً. فـ(إن) أبداً مبهمة، وكذلك حروف الجزاء. و(إذا) تُوصَل بالفعل، فالفعل في (إذا) بمنزلته في حين كأنك قلت: الحين الذي تأتيني فيه آتيك فيه» (الكتاب لسيبويه٣/ 60)

و(إن) كما قال سيبويه مبهمة، يعني غير موقتة، بخلاف (إذا) التي هي موقّتة، ويوقّتها الفعل الذي تضاف هي إليه، ولأنها تشبه (إن) الشرطية في أنها تحتاج إلى جواب استعملت في الشرط وقدمت على الفعل العامل فيها كما لو قلت: إذا احمرّ البسر آتيك، ولأنها في الأصل ظرف مضاف للفعل بعدها كانت دالة على زمن مصدر هذا الفعل، وهذا الزمن مستقبلي، مثل: إذا غابت الشمس جئتك، فكأن غياب الشمس شرط لحصول المجيء، لأنه وقت له، وهو في الحقيقة ليس شرطا، ولأن غياب الشمس لا بد واقع، فالمجيء إذن لا بد واقع إن صدق الذي قال ذلك، ولكن إن كان هذا الفعل الواقع بعد (إذا) غير معلوم وقوعه، فعندئذ تلتقي مع (إن) الشرطية المبهمة، التي هي لمطلق الشرط مثل أن تقول: إذا أمطرت السماء اليوم فلن آتيك. إي: إن أمطرت السماء. فوجوب حصول الفعل بعدها مرتبط بمعنى هذا الفعل وهل هو واجب الوقوع عقلا أم محتمل الوقوع؟

والأكثر في الاستعمال أن يكون فعل الشرط بعد (إذا) معلوم الوقوع، وأن يكون فعل الشرط بعد (إن) محتمل الوقوع، ولكن العرب تصرفت في استعمالهما لما بينهما من الشبه وهو الدلالة على الشرط، فاستعملت (إن) للفعل الواجب الوقوع مثل (إذا) كما استعملت (إذا) للمحتمل الوقوع، أي قد تحل إحداهما محل الأخرى، وهذا شأن العرب في تنويع كلامها، وقد نزل القرآن بلغتهم، فكان هذا التنويع في الاستعمال واردا في القرآن أيضا. فمن استعمال (إن) بمعنى (إذا) قوله تعالى: (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) [الأنعام 40]

فاستُعملت (إن) مع إتيان الساعة، والساعة آتية لا ريب فيها، ولا تأتي إلا بغتة.

ومنه كذلك قوله سبحانه: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ) [آل عمران: 144] فدخلت (إن) على فعل واجب الوقوع وهو مات.

ومنه كذلك (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ) [الأنبياء: 34]

ومن استعمال (إذا) بمعنى (إن) قوله تعالى: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) [النساء 101] فالضرب في الأرض أمر محتمل ليس بحتمي، وهو طارئ، والإقامة في مكان العيش هو الأصل الدائم غالبا.

ومن العجيب أن بعضهم فسر قوله تعالى:

(أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) [البقرة 186]

فسر (إذا دعان) بأنه يجب عليهم الدعاء لأن شرط (إذا) واجب.

وعلى تفسيره هذا يجب أن نقول: يجب على المؤمنين الطلاق لأن الله سبحانه يقول:

(وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) فبحسب تفسيره وفهمه لشرط (إذا) دخلت (إذا) على الفعل (طلق) وشرط (إذا) واجب الوقوع، فوجب عليهم الطلاق مثلما وجب عليهم الدعاء في قوله سبحانه (إذا دعان) [البقرة 231]

والحق أن (إذا) هنا في آية الطلاق بمعنى (إن)، ولكن لا تخلو من معنى الظرفية، أي: (في أي حين طلقتم النساء) كما أنها في (إذا دعان) ظرف أضيف لفعل محتمل الوقوع، أي: في أي وقت يدعوني. وبهذا المعنى جاء في شعر أحيحة بن الجُلاح:

بِهِ أَحْمِي الْمُضافَ إِذا دَعانِي.... إِذا ما قِيلَ لِلْأَبْطالِ هَيْتا

فالشاعر يفتخر بأنه يحمي بسيفه المضاف وهو الذي أحيط به في الحرب حين يناديه مستغيثا، ولا يعني أنه يجب على المضاف أن يستنجد به، فـ(إذا) هنا بمعنى (إن) مع الدلالة على الوقت، أي: (في أي حين يدعوني). أما حكم وجوب أن ندعو الله تبارك وتعالى فمستمد من نصوص أخرى.

وقال بشر بن أبي خازم في أوس بن حارثة بن لأم:

يُجِيبُ الْمُرْهَقِينَ إِذا دَعَوْهُ ... وَيَكْشِفُ عَنْ أَطَاخِيها دُجَاها

والمعنى يجيب المرهقين حين يدعونه، ولا يعني أنه يجب أن يدعوه.

ولعل خير ما يبين تناوب (إن) و(إذا) في الاستعمال قوله تعالى: (لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ) [فصلت: 49-51]

فقد استعملت (إن) مع (مسه الشر) ومع (أذقناه رحمة) وإذاقة الرحمة أكثر وأدوم من مس الشر، كذلك استعملت (إذا) مع (أنعمنا) ومع (مسه الشر) مثل (إن) والإنسان لا يخلو من هاتين الحالتين، ولا شك أن الإنعام أكثر من مس الشر، وقد استعملت (إن) في الحالتين كما استعملت (إذا) في الحالتين.

وقال الشاعر الجاهلي:

وَإِنّي لَحُلْوٌ إِنْ أُرِيدَتْ حَلَاوَتِي وَمُرٌّ إِذَا نَفْسُ الْعَزُوفِ اسْتَمَرّتِ

فهذا شاهد على استواء (إن) و(إذا) في كون شرطهما محتمل الوقوع، وكون الإنسان حلوا هو الأكثر والأدوم ومع ذلك استعمل له (إن)، وكونه مرّا هو الأقل حصولا، ومع ذلك استعمل له (إذا)، فهذا البيت أقوى دليل على أنه قد تستعمل كل من الأداتين محل الأخرى، ولكن (إذا) لا تخلو من رائحة الوقت بحسب أصلها الدلالي.

وقال ضمرة بن ضمرة النهشلي، وتنسب إلى هُنَيّ بنُ أحمرَ الكِنانيّ:

وَإِذا تَكُونُ كَرِيهَةٌ أُدْعَى لَهَا . . . وَإِذا يُحاسُ الْحَيْسُ يُدْعَى جُنْدَبُ

فاستعمل (إذا) مرة للقليل الوقوع وهو الكريهة، ومرة للكثير الوقوع وهو حيس الحيس، وهو خلط الأَقِط بالسمن والتمر.

فكل ما يقال عن اختصاص (إن) بالقلة أو بالمستحيل أو بالمشكوك فيه واختصاص (إذا) بالكثرة أو بوجوب الوقوع أو بعدم تطرق الاحتمال لشرطها هكذا بإطلاقٍ ليس صحيحا. فكلتاهما قد يكون شرطها واجب الوقوع أو محتمل الوقوع أو مستحيل الوقوع، وكونُ هذا الشرط واجبا أو محتملا أو مستحيلا، مستمدٌ من أمر من خارج العبارة لا من معنى (إن) أو معنى (إذا) ففي قوله تعالى (إذا وقعت الواقعة) حتمية وقوع الواقعة مستمدة من عقيدتنا لا من معنى (إذا) وكذلك في قوله تعالى (فإن قاتلوكم فاقتلوهم) احتمال وقوع القتال مستمد من الواقع عقلا لا من معنى (إن) فمهمة (إن) هي الربط بين الشرط والجزاء فقط، و(إذا) شبهت بـ(إن) فربطت مثلها بين الشرط والجزاء، والفرق الأساس بينهما أن (إذا) لا تخلو من معنى الظرفية بحكم أصلها، ولذلك قد تتمحض للظرفية فلا يبقى فيها رائحة الشرط، كقوله تعالى (والليل إذا يغشى) وقوله سبحانه (والضحى والليل إذا سجى) بخلاف (إن) التي هي للشرط المجرد وهي أمّ أدوات الشرط.

وقد نبه على تبادل (إن) و(إذا) المواضعَ بعض النحويين كابن السيد البطليوسي حيث ذكر في «مشكلات موطأ مالك بن أنس» (ص57): «أَن الْعَرَب قد تشبه (إِن) الَّتِي للشّرط بِـ(إِذا)، كَمَا تشبه (إِذا) فِي بعض الْمَوَاضِع بـ(إِن) لِأَن (إِذا) تضارع (إِن) فِي أَنَّهَا تحْتَاج إِلَى جَوَاب. والشيئان إِذا تضارعا، فقد يحمل كل وَاحِد على صَاحبه. فمما شبهت فِيهِ (إِن) بـ(إِذا) قَوْله تَعَالَى: (إِن شَاءَ الله آمنين) وَمِمَّا شبهت فِيهِ (إِذا) بـ(إِن) قَول أَوْس بن حجر:

إذا أَنْت لم تعرض عَن الْجَهْل والخنا ... أصبتَ حَلِيمًا أَو أَصَابَك جَاهِل

وإعراضه عَن الْجَهْل مِمَّا يُمكن أَن يكون، وَيُمكن أَلا يكون. وهذا من مَوَاضِع (إن) لَا من مَوَاضِع (إذا)، لِأَن " إِذا " إِنَّمَا بابها أَن تُسْتَعْمَل فِي الْأُمُور الَّتِي وُقُوعهَا مَضْمُون كَقَوْلِه: إِذا احمرَّ الْبُسْر فأْتني، وَإِذا كَانَ اللَّيْل فالقني»

وكذلك قال ابن يعيش في «شرح المفصل لابن يعيش» (5/ 113): «وربما استُعملت "إنْ" في مواضعِ "إذا"، و"إذا" في مواضعِ "إنْ"، ولا يَبينُ الفرقُ بينهما لِما بينهما من الشركة، وتقول من ذلك: "إن متُّ فاقضوا دَيْنِي"، وإن كان موته كائنًا لا محالةَ، فهو من مواضع "إذا"، إلَّا أن زمانه لما لم يكن متعينًا، جاز استعمالُ "إنْ" فيه...

وقال الشاعر:

كم شامِتٍ بي إن هلكتُ وقائل لله دَرُّه

فهذا من مواضعِ "إذا"؛ لأن الموت والهلاك حتمٌ على كل حَيّ، فأمّا قول الآخر:

إذا أنْتَ لَم تَنزعْ عن الجَهْل والخَنَا .... أصَبْتَ حَليمًا أو أصابَك جاهِلُ

فهو من مواضعِ "إن"؛ لأنّه يجوز أن ينزع عن ذلك، وألّا ينزع، إلَّا أنّ بعضهما أحسن من بعض، فقولنا: "إن مات زيدٌ كان كذا" أحسنُ من قولنا: "إن احمرّ البسرُ"؛ لأن موت زيد مجهولُ الوقت، واحمرار البسر له وقتٌ معلومٌ، فاعرفه»

والشواهد في الشعر على ذلك كثيرة جدا. نكتفي منها بهذه الشواهد من الشعر الجاهلي، التي تؤكد ما بيناه:

قال امرؤ القيس بن عابس وقيل: الفند الزماني:

فَإِمّا مِتُّ يا تَمْلي فَمُوْتِي حُرَّةً مِثْلي

البيت من أبيات عدة في الأصمعيات، و(إما) هنا مركبة من (إن) الشرطية و(ما) الزائدة للتأكيد، و(تمِلِ) منادى مُرخَّم لـ(تَمِلِكَ) اسم حبيبته، ومُدّت الكسرة حتى صارت ياء لأنها في نهاية الشطر الأول، والشاهد فيه أن الشاعر استعمل (إن) للمحتم الوقوع وهو الموت.

وقال سُمَير بن الحارث الضبي:

أَرَدْتُ الَّتِي إِنْ مِتُّ أَوْرَثْتُ مَجْدَها . . . وَإِنْ عِشْتُ يَوْماً كانَ لِلْحَيِّ مَفْخَرُ

والشاهد هنا أيضا استعمال (إن) للشرط المتحقق الوقوع في قوله: إن متّ.

وقال زهير بن أبي سلمى في مدح هَرِم:

وَإِنْ أَتَـاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ ... يَقُـولُ لَا غَـائِبٌ مَـالِي وَلَا حَـرِمُ

الشاهد فيه استعمال (إن) لما هو من شأن الممدوح الذي لا يرد فقيرا سائلا، والخليل هنا الفقير، فالشرط هنا من قبيل المضمون الوقوع، ولو كان الشرط محتمل الوقوع أو نادر الوقوع لكان ذمّا لا مدحا، وهو من مواضع (إذا) ولكن الشاعر استعمل (إن).

أما استعمال (إذا) للمحتمل الوقوع فخير شاهد له البيت المنسوب لطرفة:

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً ... فَأَرْسِلْ حَكِيماً وَلَا تُوْصِهِ

فالشرط هنا محتمل الوقوع، وهذا من مواضع (إن) واستعمل الشاعر فيه (إذا) بدلا من (إن)

وقال زهير بن جناب الكلابي:

إذا ما شِئْتَ أَنْ تَسْلَى حَبِيباً ... فَأَكْثِرْ دُونَهُ عَدَدَ اللَّيالِي

والمعنى: إن شئت، لأنه قد يشاء وقد لا يشاء.

وقال عروة بن الورد:

إذا آداكَ مالُكَ فَامْتَهِنْهُ .... لِجادِيهِ وَإِنْ قَرَعَ الْمُراحُ

والمعنى هنا أيضا على الاحتمال، لأن المال قد يكثر وقد لا يكثر وآدى المال بمعنى كثر. يقول: إذا كثرت إبلك فابذلها للسائلين وإن لم يبق منها ما يراح به إلى مراحها.

وأختم هذه الشواهد ببيت جمع فيه الشاعر بين (إذا) و(إن) والمعنى على الاحتمال لا القطع والوجوب، وهو قول عمير بن جعل الكلابي:

إذا ضَيَّقْتَ أَمْراً ضاقَ جِدّاً وَإِنْ هَوَّنْتَ ما قَدْ ضاقَ هانا

ويروى: ما قد عزَّ. وهو شاهد على أن الشاعر سوّى بين (إذا) و(إن). وفي اختياره إشارة مني إلى سعة اللغة فلا ينبغي أن نضيق واسعا. والشواهد الشعرية كثيرة جدا بحيث لا يمكن للمخالف أن يعترض بأن هذه الشواهد من باب الضرورات.

والخلاصة أن الغالب في شرط (إذا) أن يكون فعلا واجب الوقوع أو بمنزلته، وهي ظرف مضاف لهذا الفعل متعلق بجواب الشرط، والغالب في شرط (إن) أن يكون فعلا محتمل الوقوع، وهي أمّ أدوات الشرط، وقد تستعمل (إذا) مكان (إن) وقد تستعمل (إن) مكان (إذا) لاشتراكهما في الدلالة على الشرط.